المقتطف

الجزء الرابع من السنة التاسعة عشرة

١ ابريل (نيسان) سنة ١٨٩٥ الموافق ٦ شوال سنة ١٣١٢

اسمعيل باشا الخديوي الاسبق

قضى قيصرٌ لم تغنِ عنهُ قصورهُ وجُدّل كسرى ما حمتهُ مجادلُهْ
وما صدّ هلكًا عن سليمان ملكهُ ولا منعتْ منهُ اباهُ سرابلُهْ
وما نفسُ الانسانِ الاّ خزامةٌ بايدي المنايا والليالي مراحلهْ

لو كان في الكون عالم سكانهُ سواء في الجاه والسودد ورأوا ابناء آدم يموت الف منهم فلا يُعبأ بهم ويموت واحد فتميد لموتهِ المسكونة لانكروا علينا اننا من طينة واحدة ولما انجلت عن نفوسهم سورة الانكار الاّ اذا رأونا نتساوى تحت الثرى الرفيعُ والوضيع والمالك والمملوك . لكنّ ما يساوي بين اجسامنا هنالك لا يساوي بين نفوسنا لان النفوس الكبيرة ألّتي يمتاز بها بعضنا على بعض لا تدفن في التراب والهمم العليّة لاتغيّب تحت الثرى بل تبقى آثارها ما دامت الاكوان

ولقد شهد اهالي هذا القطر في اوائل الشهر الماضي مشهدًا يتّعظ بهِ الحكيم ويصحو منهُ الغافل شهدوا المنيّة انشبت اظفارها بمن سامت همّتهُ الثريا وهابت صولتهُ نوائب الايام

بمن كان مثل الدهر بطشًا وصولةً يرجّى ويخشى عندهُ النفع والضرُّ

فان اسمعيل باشا الخديوي الاسبق اجاب داعي الردى بعد اعتلال طويل انهك قواهُ وحنين الى وطن فارقهُ ثم لم تكتحل عينهُ بمرآه

وهو ابن ابرهيم باشا بطل قونية ونصيبين ابن محمّد علي باشا الكبير معيد العمران الى الديار المصريّة . ولد في ختام سنة ١٨٣٠ الميلاد في عهد ابيهِ وجدّهِ حينما كان نجمهما

في اوج مجده . ثم لما توفي ابوهُ في الثالث عشر من ذي الحجة سنة ١٢٦٤ (١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨) وولي عباس باشا الاول مكانهُ كان عمرهُ اقل من تسع عشرة سنة وكان الثالث بحسب قانون الوراثة الذي صدر بهِ الخط الهمايوني لمحمد علي باشا سنة ١٨٤١ ومفادهُ ان الوراثة للاكبر . ويأتي قبلهُ سعيد باشا عمهُ واحمد رفعت باشا اخوهُ الاكبر. وتوفي عباس باشا الاول في ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يوليو سنة ١٨٥٤) فتولى عمهُ سعيد باشا وفي ايامهِ غرق اخوهُ احمد رفعت باشا عند كفر الزيّات في الثلاثين من شهر رمضان سنة ١٢٧٤ (١٤ مايو ١٨٥٨) فافضت ولاية العهد اليهِ

وارسلهُ سعيد باشا الى اوربا مرارًا في سفارة لدى البابا والامبراطور نبوليون الثالث ولم يُعلَم الغرض منها تمامًا الى الآن وانابهُ عنهُ لما ذهب الى الحج الشريف . وتوفي سعيد باشا في الثامن عشر من شهر يناير سنة ١٨٦٣ (٢٧ رجب ١٢٧٩) فخلفهُ الفقيد وهو ابن اثنتين وثلاثين عامًا وكان قد جمع ثروةً طائلة حتى قيل ان دخلهُ السنوي كان نحو مئة وستين الف جنيه

وسنة ١٨٦١ نشبت الحرب الأهليَّة في الولايات المتحدة الاميركيَّة فاشتغل اهلها بها عن زراعة القطن وكانت البلاد الانكليزيَّة تبتاع من القطن الاميركي نحو ١٤٠٠ مليون رطل في السنة فلم تقدر ان تبتاع منهُ سنة ١٨٦٢ سوى ٥٢٤ مليون رطل فارتفع ثمن القطن المصري ارتفاعًا فاحشًا حتى زاد خمسة اضعاف وكانت غلتهُ تقدَّر بخمسة ملايين جنيه فصارت تبلغ خمسة وعشرين مليونًا فسهل على اسمعيل باشا ان يتقاضى من الفلاحين عشرين مليونًا من الجنيهات كل سنة فوق الضرائب الَّتي كان يتقاضاها منهم وهذه الاموال الطائلة سهَّلت عليهِ الإنفاق فانفقها في سُبُل مختلفة كما سيجيء

وجدَّ في طلب العلاء ومنافسة الملوك غير ضنين بمالٍ طالما تيسر لهُ جمعهُ من البلاد او استدانتهُ من المرابين فضاعف الجزية للباب العالي حتى منحهُ لقب خديوي مصر وهو اول مَن لُقّب بهِ وانفق على الفرمان الذي يحصر الخديويَّة بنسلهِ نحو اثنتين وثلاثين مليونًا من الجنيهات

وكان شديد الميل الى الهندسة والرسم والتخطيط منذ نعومة اظفارهِ فشغف بتنظيم المدن وتكثير المباني وكان يعلق في غرفتهِ رسم القاهرة ليراهُ كلما وقف لغسل وجههِ ويستقرئ تنظيمها عاقدًا النيَّة على جعلها مثل مدينة باريس فاصلحها اصلاحًا يشكرهُ عليهِ السلف ما توالت الايَّام

وكان المسيو ده لسبس قد اقنع سعيد باشا بفتح ترعة السويس والف شركة لذلك وربط الحكومة المصريَّة بشروط قد تعود عليها بالمشاكل وفي جملتها انهُ يحق للشركة ان تحفر ترعة حلوة من النيل الى ترعة السويس يستقي منها العمال وتحيي الارض الموات ٱلَّتي على جانبيها اذا لم يكن لها مالك وتملكها تسعاً وتسعين سنة وتحفر ترعة اخرى تمتدُّ من الترعة الاولى الى مدينة السويس جنوباً والى بورت سعيد شمالاً والارض الموات ٱلَّتي ترويها هذه الترعة وتحييها تكون ايضاً للشركة مدة تسع وتسعين سنة . ولما نفدت اموال الشركة بعد وفاة سعيد باشا اخذ رؤساؤها يبحثون عن واسطة لجمع المال فاقنعوا اسمعيل باشا ان انشاء احدى الترعتين يثير الخصومات بينهم وبين اصحاب الارض ٱلَّتي تجاورها ولذلك فهم يتنازلون عنها كرماً منهم اذا كان ينشئ لهم الترعة الاخرى . وكان يحسب ان ترعة السويس ستدرُّ الخير العظيم على هذا القطر فقبل ما طلبوهُ منهُ لكنهم حنقوا عليهِ بعد ذلك لمَّا امر الباب العالي بابطال السخرة وطلبوا منهُ العوَض عما خسروهُ من ابطال الترعة الحلوة فحكم الامبراطور نبوليون الثالث فحكم ان ابطال حق الشركة في فتحها يخسرها اموالاً كثيرة كان يمكن ان تربحها من الارض ٱلَّتي تحييها ومن ثمن الماء الذي تبيعهُ للري ولذلك فعلى اسمعيل باشا ان يدفع اليها سبعة ملايين ونصف مليون من الفرنكات وهي الاموال ٱلَّتي انفقتها على هذه الترعة بحسب دفاترها ومليونين ونصف مليون فرنك ربحاً لهذه الاموال وستة ملايين فرنك بدل ما كان يمكنها ان تربحهُ من ثمن ماء الري وثلاثين مليون فرنك ثمن ما كان يمكنها ان تحييهُ من الارض الموات . ثم ادَّعت ان نبوليون اغضى عن حقٍّ آخر من حقوقها وهو ان الترعة الحلوة لو تمت لصار فيها بحيرة كبيرة يتولد فيها السمك ويكثر ويصاد ويباع ويكون منهُ الربح الوافر . فلما رأى اسمعيل باشا ذلك بعد ما اصابهُ من تحكيم نبوليون رضي ان يدفع اليها ثلاثين مليوناً من الفرنكات بدل هذا الحق الجديد فاخذتها منهُ واخذت فوقها عشرة ملايين اخرى من الفرنكات . ولما لم يكن المال ميسوراً لديهِ حينئذٍ رهن عندها ١٧٧٦٦٢ سهماً من سهام ترعة السويس لتأخذ ربحها الى اواخر سنة ١٨٩٤ وكان سعيد باشا قد ابتاع هذه الاسهم قبل وفاتهِ

وتم حفر ترعة السويس وفتحت في شهر نوفمبر سنة ١٨٦٩ باحتفال عظيم حضرهُ كثيرون من الملوك والعظماء ويقال انهُ انفق حينئذٍ على زينة القاهرة وضواحيها مئة مليون من الفرنكات عدا ما انفقهُ على ضيوفهِ وعلى مدينة الاسمعيلية نقطة الاحتفال

وهذا الانفاق الطائل والسخاء الحاتمي اضطراهُ الى استدانة الاموال بالربا الفاحش. ولم يكن يحسب الدَّين عارًا على البلاد او حطة من قدرها لعلمهِ ان اعظم ممالك اوربا واسنها اكثرها دينًا . فتولى الاريكة المصريَّة ودين البلاد نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات وغادرها ودينها نحو مئة مليون لكنهُ لم ينفق المال الذي استدانهُ او جمعهُ على نفسهِ كلهُ بل انفق جانبًا كبيرًا منهُ في الاعمال النافعة كانشاء المدارس وتوسيع الترع وإقامة الجسور وتنظيم الشوارع ولعلهُ انفق على هذه الاعمال اكثر مما كانت تقتضيهِ لكنَّ ذلك شائع في كل الممالك فلا تستطيع حكومة ان تباري الرعيَّة في التدبير والاقتصاد

وفي اوائل سنة ١٨٧٦ انشأ الحاكم المختلطة وهو يحسب انها ستكون عضدًا لهُ في التسلُّط على الاوربيين نزلاء هذا القطر والذين لجأُوا الى الحماية الاوربيَّة من سكانهِ فكان من باكورة اعمالها الحكم على الحكومة ودوائرها وعلى املاكهِ الخاصة واملاك العائلة الخديويَّة . فزاد ارتباكهُ ارتباكًا واضطرَّ ان يبيع اسهم ترعة السويس مع انها كانت مرهونة كما تقدَّم وان يتنازل عن املاكهِ للحكومة وانشأ حكومة دستورية جعل نوبار باشا رئيسًا لها ورضي بالمراقبة الاوربيَّة على الماليَّة المصريَّة وعيَّن المستر رفرس ولسن ناظرًا للماليَّة والمسيو ده بلنيير ناظرًا للاشغال وكان ذلك كلهُ على غير مرامهِ فثارت ثائرة الجند حينئذٍ واضطرتهُ ظاهرًا الى قلب الوزارة لكن فرنسا وانكلترا أبتا الاَّ بقاء وزيريهما فيها فابقاهما وجعل رئاستها لولي عهدهِ المرحوم توفيق باشا الخديوي السابق

واشتكت المانيا والنمسا حينئذٍ من ان احكام المحاكم المختلطة لا تنفَّذ وكأنهما ارادتا التعرُّض للشؤون المصريَّة فاضطرت انكلترا وفرنسا ان تطلبا من الباب العالي خلعهُ فخُلع في السادس والعشرين من شهر يوليو (حزيران) سنة ١٨٧٩ وقضى ما بقي من ايامهِ في اوربا والاستانة الى ان ادركتهُ المنيَّة فيها في الساعة الثامنة من صباح اليوم الثاني من شهر مارس الماضي وهو في الخامسة والستين من عمرهِ . فراح الذي تضرب بسطوتهِ الامثال وترتعد لذكر صولتهِ قلوب الرجال ولم يبقَ منهُ غير ما بقي في دار التحف الَّتي انشأها من عظام السظام ورمم سلاطين الانام . لكن ذكرهُ باقٍ في التاريخ المخلِّد لذكر الرجال الحاكم بالعدل في الاقوال والاعمال الناصب ميزانهُ في احدى كفتيهِ ظفر الفقيد بلقب الخديويَّة . وحصرها في ذريتهِ دون غيرها من العائلة المحمديَّة العلويَّة . وفتح دارفور وضمها الى الاملاك المصريَّة وكشف المجهولات الافريقيَّة . وتوسيع نطاق الاملاك البرقيَّة والسكك الحديديَّة . وتكثير الترع واقامة الجسور وبناء مدينة الاسمعيليَّة . وانشاء دار

التحف المصريَّة والمكتبة الخديويَّة . والاخذ بناصر المعارف واربابها في مصر وغيرها من البلاد الشرقيَّة. وبناء القصور والمشاهد وانشاء الحدائق وتنظيم الطرق والشوارع وغرس الاشجار على جوانبها وجر الماء اليها واقامة الانوار فيها الى غير ذلك مما لا يستوعب وصفهُ في مقالة ولا مقالات . وفي الكفة الاخرى اساليب البذخ والتبذير والاسراف ٱلَّتي افضت الى العسف والعنف وسوق الرعيَّة بعزم شديد وسياط من حديد حتى اذابتهم الرهبة واضنتهم الفاقة وساءت حال الحكومة وحلَّ الضيق بماليتها وثقلت ديون اوربا على كاهلها فاقتضى ذلك تعرُّضها لشؤونها وصيرورتها الى ما صارت اليهِ

ومهما كان من حكم التاريخ بعد وزن ما للفقيد وما عليهِ من المساعي ٱلَّتي اراد بها محاكاة بلادهِ للبلاد الاوربيَّة في عمرانها وحضارتها ونظامها وحريتها ولكن مع بقاء حكامها شرقيين مستقلين عن كل قوة اوربيَّة فلن ينقض التاريخ بعد وفاتهِ ما اثبتهُ في حياتهِ من انهُ كان من كبار الرجال ورث البأس والصولة عن ابيهِ والاقدام وكبر الهمة عن جدهِ وصغرت لديهِ عظائم الامور وهانت عليهِ صعابها حتى اقدم على ما تكاد كبار الملوك تحجم عنهُ . ولو أُوتي من قوة التدبير والعناية بطرق الاقتصاد قدر ما اوتي من الاقدام على العظائم والشروع في الاعمال العموميَّة لاطبق الناس على عدهِ من نوابغ الرجال

ولو اثمر ما غرستهُ يدهُ في زمانهِ لما خانهُ عصرهُ واخنى عليهِ دهرهُ . فان القناطير المقنطرة ٱلَّتي بذلتها راحتهُ على الجنَّات والمتنزهات والمشاهد والملاهي كالاوبرة الخديويَّة ٱلَّتي اتمها في خمسة اشهر ليفكَّه فيها ملوك اوربا وسراتها عند فتح ترعة السويس ونحو ذلك مما كان في زمانهِ ينفع قليلين ويضرُّ كثيرين اصبح اليوم كالمغنطيس يجتذب السياح الى هذا القطر حيث يبذلون الالوف المؤلفة . ولو سعى المصريون في طرق اكتسابها منهم ولم يتركوا معظمها مغنمًا باردًا لبعض الاوربيين المقيمين بينهم لربحوا منها في العام الف الف جنيه او حواليها . وجلها مما شيدتهُ يمين الفقيد في هذا القطر وتركتهُ رأس مال لمن يعلم اصول المتاجرة بهِ . ومن يدري ان كان التاريخ لا يحكم على مر الايام ان الفقيد ابتاع الفرج لبلادهِ بالضيق الذي حاق بها في ايامهِ وان الاعمال ٱلَّتي استنزف فيها ثروتها وحرمها من ارباح ترعة السويس من اجلها عادت فاحيت مواتها وحوَّلت ميازيب النضار اليها . فكم من عسر قصير عاجل جاء بيسر طويل آجل . ولولا قضب اغصان الكروم ما نضرت ولولا مقاساة التعب والمشقة ما قويت الابدان ولا اشتدَّت

ولما بلغ نعيهُ الديار المصريَّة اجتمع اعضاء الاسرة الخديويَّة يعزُّون الجناب العالي ويعزي بعضهم بعضاً واقبل سراة القوم يعزونهم عن هذا المصاب الفادح . وأُمرت السفينة الخديويَّة ٱلَّتي كانت حينئذٍ في مياه الاستانة العليَّة بحمل جثتهِ الى هذه الديار فبلغت الاسكندريَّة في العاشر من الشهر . ومضى الجناب العالي الى الاسكندريَّة مع حضرات الامراء اعضاء الاسرة الخديويَّة ونظار الحكومة المصرية للاحتفال بتشييعها الى العاصمة فساروا بها في اليوم التالي بموكب عظيم من سراي رأس التين الى محطة سكة الحديد ومن ثمَّ الى العاصمة بثلاثة قطر الاول يقلُّ حرم الفقيد وحاشيتهُ والثاني وهو القطار الخاص يقل سموّ الخديوي المعظم وحاشيتهُ والثالث يقل حضرات الامراء اعضاء الاسرة الخديويَّة ونظار الحكومة المصريَّة ودولتلو راتب باشا السردار الاسبق وغيرهم من كبار رجال الحكومة ومعهم جثة الفقيد في مركبة خاصة . وبلغت الجثة العاصمة في المساء فتُركت في غرفة من دار المحطة يحرسها الجلال والإعظام ثم دفنت في اليوم التالي بما يليق من الابهة والاكرام كما سيجيء في آخر هذا الجزء

اوصافهُ

لم يُتح لنا ان نرى الفقيد في هذه الديار ولا في قطر آخر فنقلنا ما يلي من اوصافهِ عن صديق اخلص الودَّ لهُ ونظر في اعمالهِ نظر المنتقد المنصف . قال ما خلاصتهُ

كان اسمعيل باشا قصير القامة اشقر الشعر كبير الاذنين ضخم الواحين كث الحاجبين يكاد شعرهما يغطي مقلتيهِ . اذا صمت انخفض جفنهُ الايسر حتى يكاد يغطي عينهُ وحدَّق بعينهِ اليمنى الى الناظر اليهِ كأنهُ يستجلي ضمائرهُ . واذا تكلم فتح عينهُ اليسرى واغمض اليمنى . وكان جلاَّسهُ يقولون انهُ يحسن بعين ويتكلم بأُخرى . وقيل لهُ في ذلك فقال "نعم ولكنني افكر بالاثنتين معاً" . وزاد سمنهُ بعد ان اكتهل حتى صار يمشي الخوزلى

ومما خُصَّ بهِ انهُ كان يسحر جليسهُ حتى لا يخرج من لدنهُ الاَّ وهو راضٍ مقتنع بما القاهُ اليهِ . لكنَّ تأثير سحرهِ لم يكن طويلاً في النفوس فيذهب الاقتناع بذهابهِ وهذا سرُّ الحادثة التالية ومئات مثلها . ذلك انهُ قال لي مرةً لقد ضقت ذرعاً بالقنصل فلان فانهُ يأتيني ويوافقني على كل ما اقولهُ لهُ ثم يمضي ويكتب الى حكومتهِ يخالفني في كل ما وافقني عليهِ . فلماذا يقول في وجهي شيئاً ويفعل في غيبتي غيرهُ . فقلت لهُ اما سألتموهُ عن ذلك . فقال نعم سألتهُ عشرين مرةً فكان يقول لي انهُ اخطأ في مابعث بهِ الى حكومتهِ ويعدني باصلاحهِ ثم يمضي ويفعل كما فعل اولاً فاحيلني بهِ وانا لا استطيع ان اجلس معهُ وقتاً يكتب

وكان قوي البداهة لا تفوتهُ بادرة الاَّ استدركها . فقد عرض مرةً مالاً على مكاتب احدى الجرائد الشهيرة اَلتي لا تُرْشى ولم يكَد يتم كلامهُ حتى استدركهُ قائلاً " انني اعرض ذلك عليك لكي ارى ما اعرضهُ يُرْفَض ولو مرةً واحدةً في العمر كما سيُرْفَض الآن حتماً ". وامثال ذلك كثيرة

اما سحرهُ لجلاَّسهِ فليس لانهُ كان يتملَّقهم بالحديث بل لانهُ كان شديد الفراسة فيعرف اخلاقهم ويكلم كلاً منهم على قدر فهمهِ حتى لقد كان الاضداد يخرجون من مجلسهِ وكلهم راضٍ بما قالهُ لهُ ولو كانوا على طرَفَيْ نقيض . فاذا كان جليسهُ من اهل الادب والظرف حادثهُ بما يشفُّ عن أدب راسخ وظُرْف رائع . واذا كان من ارباب الاعمال كلمهُ عمَّا يتعلق بأعمالهِ كانهُ من البارعين فيها . وقلت لهُ مرَّة في ذلك فابرقت اسرَّتهُ وقال " من الناس مَن يحسن ركوب الفرس ومنهم مَن يحسن ركوب الجمل ومنهم مَن يحسن ركوب الحمار اما الفارس الماهر فيحسن ركوب الثلاثة على حدٍّ سوى "

وكان مقتصدًا ومسرفاً في وقت واحد فقد تملكتهُ ملكة الاقتصاد قبلما تولَّى البلاد وكثر مالهُ بها ثم تملكتهُ ملكة الاسراف ايضاً حينما صارت الاموال تنهال عليهِ كالسيل لكن ملكة الاقتصاد لم تزايلهُ فكان يقتصد بالدرهم ويسرف بالمليون في وقت واحد . ولم يقم في الديار الغربيَّة ولا في الشرقيَّة من جاد جودهُ وقت الاحتفال بترعة السويس فقد اباح لكل مدعوٍّ من الاوربيين ان يأتي الديار المصريَّة وينزل في الفخر نزلها ويسافر برًّا وبحرًا مدة ثلاثة اشهر من غير ان يدفع غرشاً واحداً هذا عدا ما قابل بهِ ضيوفهُ الملوك من الاَبَّهة والاكرام الذي لم يسمع بمثلهِ في غابر الايام

وكان مجلسهُ محفوفاً بالمهابة والانس فيجدُّ وقت الجد ويهزل وقت الهزل . قيل اغتاظ مرةً من قنصل من قناصل احدى الدول ثم رضي عنهُ بتوسُّط شخص آخر فبعث الى زوجة القنصل سوارًا ثمينًا جدًّا . وكانت هذه المرأة تأكل المكرونة على اسلوب يشمئز منهُ . فقال لهُ الوسيط على مَ تهدي اليها هذه الهديَّة الثمينة فقال " إمَّا هذه الهديَّة وإمَّا ان ادعوها الى الطعام . والحرب اسهل عليَّ من رؤيتها تأكل المكرونة "

وكان الزوار يفتتحون الحديث معهُ في المقابلات الرسميَّة بذكر الحرّ والبرد فيقول احدهم مثلاً الحرُّ شديد . فيقول لهُ نعم ولكنهُ في الاسكندريَّة اشد منهُ هنا . فيقول المتكلم ان سبب ذلك جفاف الهواء في القاهرة ورطوبتهُ في الاسكندريَّة . فيقول لهُ نعم وهذا قد اختبرتهُ بنفسي . وفي ذات يوم دخل عليهِ قنصل وافتتح الحديث معهُ على جاري

العادة وذلك حينما كانت دول اوربا ساعية في خلعهِ فقال للقنصل " انني اعلم ما تريد ان تقول فليكن معلوماً عندك انني صرتُ اعتقد ان هواء مصر رطب وهواء الاسكندريَّة جاف "

وقبل ان خُلع بليلة جاءهُ المستر لاسلس قنصل انكلترا والمسيو تريكو قنصل فرنسا وجعلا يلحَّان عليهِ لكي يتنازل لابنهِ فابى قائلاً ان الباب العالي لا يسمح لي بذلك فقال لهُ قنصل فرنسا انك قد خالفت الباب العالي في عشرين امرًا فلي مَ لا تخالفهُ في هذا الامر . فقال لهُ اسمعيل باشا " اذكر لي امرًا واحدًا منها ان استطعتَ " . اما المسيو تريكو فخانتهُ ذاكرتهُ حينئذٍ ووقف صامتاً . فتناول المستر لاسلس الحديث وقال لهُ " اما يجدر بسموكم ان تظهروا شيئاً من استقلالكم عن الباب العالي " فاجابهُ قائلاً " وما الفائدة من هذا الاستقلال اذا كان اول ثمرة من ثمارهِ التنازل عن كل ما بيدي من السلطة " . فدهش المستر لاسلس من هذا الجواب المفحم

وكان شديد الحافظة قوي الذاكرة اختلفتُ معهُ مرةً سنة ١٨٧٥ في مسألة تتعلق بترعة السويس فتلا عليَّ نحو عشرين سطرًا من رسالة أُرسلت اليهِ منذ عشر سنوات فكتبت ما تلاهُ في الحضرة وعدت ابحث عنهُ في الرسالة فوجدت انهُ ذكرهُ حرفاً حرفاً

وكان يتطيَّر من يوم الخميس فلا يعمل فيهِ عملاً ذا شأن . وحدث انهُ كان راجعاً مرةً من الاستانة الى مصر بيختهِ المحروسة وكانت اسرع السفن كلها حينئذٍ . فقيل لهُ انها تصل الاسكندريَّة يوم الخميس فاصر ان تصل يوم الاربعاء فقال لهُ الربَّان ان ذلك ضرب من المحال . فاستدعى مدير آلاتها وكان انكليزيًّا وامرهُ ان يوصلها يوم الاربعاء فقال ان ذلك متعذّر فقال لهُ اسمعيل باشا يجب ان تفعل . فقال ان انا زدت سرعتها تمزَّقت آلاتها اربًا . فقال لهُ ان بلغنا الاسكندريَّة يوم الاربعاء فلك مني رتبة بك وان بلغناها يوم الخميس عزلتك من منصبك . فوصلت المحروسة الى الاسكندرية يوم الاربعاء ونال الرجل رتبة بك

وكان حسن الغرائز واسع المدارك لكنهُ كان يحسب ان مشيئتهُ فوق كل شريعة ومصلحتهُ فوق كل مصلحة فان توسَّم في امرهِ خيرًا وآنس فيهِ نفعاً قرَّبهُ ورفع شأنهُ ولو لم يجدْ منهُ نفعاً لنفسهِ وان توسم فيهِ شرًّا ورأى منهُ ضررًا اقصاهُ واراح الناس منهُ . وعلى هذا المبدإ ساس البلاد المصرية وهو سرُّ ما رأَتهُ في ايامهِ من السرَّاء والضرَّاء

هذا وقد نشرنا صورتهُ في المقتطف منذ خمس عشرة سنة وسننشر صورة اخرى اصحَّ منها في جزء آخر لان الصور الميسور نشرها الآن لا تمثلهُ تماماً